دلائل فرادة النص القرآني "استحالة ترجمة القرآن أنموذجا"

Signs of the uniqueness of the Quranic text "The intraductibility of the Qur'an as a model"

تاريخ الإرسال: 2018-10-05 تاريخ القبول: 2018-10-17

الدكتور نورالدين دحمان

جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف (الجزائر)

الملخص:

لقد تُرجم القرآن الكريم إلى جلّ لغات العالم، في الوقت الذي يرى فيه الفقهاء أنّه **لا يمكن اعتبار ما يترجم من القرآن قرآنا**. غير أنّ ما يجب الإقرار به أنّ معاملة المسلمين للقرآن الكريم و إحلاله المحلّ الأرفع يدفع سائر الناس إلى التّساؤل عن سبب تمييز القرآن الكريم عن سائر النّصوص. و هل هذا التمييز يرجع سببه إلى عاطفة دينية تُملي على المسلمين ذلك، أم أنّ سببه يتجاوز هذه العاطفة ليكشف بعد البحث و التّحري أنّ هناك حقيقة فرادة يتميّز بها نص القرآن الكريم عن سائر النّصوص أرضييها و سماويها؟ و هو ما يدفعنا إلى التّساؤل عن مكامن فرادة القرآن الكريم بالأدلة اللسانية النّصية المتوفرة.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم – اللسانيات– الترجمة – اللسانيات الإدراكية – استحالة الترجمة.

Summary :

The translation of the Holy Qur'an has sparked differences among both Muslim and non-Muslim scholars. This leads us to wonder whether the concept of the intransigence of the Koran falls within the realm of the inimitability of the Qur'an.
And why scholars of Islam have issued the legal judgment of the impossibility of a translation of the Koran.

Key words: The Holy Koran - Linguistics - translation - Cognitive linguistics - intraductibility.

لقد وصف الله –سبحانه و تعالى– القرآن الكريم بأنه **كتاب عزيز**. و سوف يتبيّن أنّ إثبات استحالة ترجمة القرآن لتندرج ضمن القول بفرادة القرآن و تميّزه بخصائص لا يشاركه فيها غيره من نصوص الأرض و السماء. فالشئ العزيز لغة إنّما هو الشئ النادر الذي لا يُوجد مثله، و لا يوجد وصف هو أليق بما نحن بصدده من فرادة القرآن و تميّزه مثل وصف الكتاب **بأنه عزيز**.

لقد أجمع علماء الأمّة على استحالة ترجمة القران الكريم إلى غير اللغة العربية. وأنّ العبادة لا تُؤدّى بالنص المترجم بتاتا، و أنّ موضع الإعجاز من القرآن ما كان عربيّا منه فهو المنقول إلينا بالتواتر و المحفوظ في الصدور و المكتوب في المصاحف و الموافق للعربية و لو من وجه. و مفاد هذا الأمر أنّ نقل الخطاب القرآني إلى لغات العالم بطريق التفسير أو التأويل أو الشرح هو أمر مُتيسّر و مُتاح و مبذول. وقد يُطلق بعضهم على ذلك كلّه – تجوّزا – ترجمة معاني القرآن الكريم. و أمّا ما يُمنع و يُحال فقها و شرعا فهو **اعتبار ذلك الخطاب المنقول إلى لغة أخرى غير العربية قرآنا**.

فالنسخة الوحيدة من القرآن هي باللغة العربية و هي العهد الأخير قياسا على العهدين القديم و الجديد لليهود و النّصارى و ما لحقهما من تحريف بسبب ما استُحفظوا إيّاهما فما رعوهما حق رعايتهما. إنّ الحكم الفقهي بعدم قابلية ترجمة القرآن و استحالتها يحمل في طيّاته فكرة لا تُخطئها العين و هي إثبات تفرّد هذا الكتاب و تميّزه بخصائص لا يمكن أن تتوفّر في أيّ كتاب آخر سماويّ أو أرضيّ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قد لا يُوافق الكثير من النّاس (مسلمين و غير مسلمين) على هذا الاتجاه و يرون أنّ القرآن مثله مثل أيّ نصّ آخر يمكن إخضاعه لما تخضع له كلّ النّصوص الأخرى بدون استثناء. غير أنّ القرآن نفسه بما يملك من مقومات التّعالي و التّسامي يندّ عن التصنيف و التبويب (فهل هو شعر أم نثر أم شعر منثور أم غير ذلك، أم هو قرآن فحسب؟).

«La beauté du coran tient en grande partie à sa **prose rimée** et à son style littéraire. Cependant, le Coran lui-même insiste particulièrement pour faire valoir que son texte ne relève pas du genre poétique. Il s'agit d'autre chose»(1)

فالقرآن الكريم لا يرضى إلاّ أن يكون مهيمنا على ما عداه. قال سبحانه و تعالى"**وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقا لما بين يديه من الكتاب و مهيمنا عليه**"(2)

وسنحاول أن نبيّن أنّ الحكم الفقهي باستحالة الترجمة إنّما يتساوق مع لهذا القرآن من الخصوصية التي ليست لغيره. رأينا أنّ علماء القرآن يحكمون باستحالة وقوع ترجمة القرآن الكريم. لقد حكموا بذلك في وقت لم تكن فيه العلوم على ما هي عليه اليوم من التقسيم و التحديد و التطوّر الذي مسّ كل نشاط بشري معلوم. وأمام سيل المدارس العلمية و المناهج البحثية فإنّنا صرنا أكثر و عيا بضرورة الاحتكام إلى المنهج العلمي ليفصل بين المتنازعين حول أيّة قضيّة من القضايا. ربّما يكون الحفاظ على قداسة القرآن الكريم هو ما حدا بالعلماء – في وقت من الأوقات – إلى الحكم باستحالة وقوع الترجمة لهذا القرآن الكريم. و نحن اليوم يتوفّر لنا من المناهج ما لم يكن متيسّرا عن ذي قبل. و هو ما يدفعنا إلى محاولة استجلاء مآلات القول باستحالة ترجمة القرآن الكريم.

- **فما مسوغات القول باستحالة الترجمة والتي تقوم كدليل على تفرّد هذا الكتاب؟**
- **وما هي الدلائل العلمية على استحالة ترجمة القرآن في نسخته العربية؟**

سوف أحاول أن أعرض هذه الدّلائل من خلال المخطط التّالي الذي يعرض العناصر التي أراها تقوم كأدلّة على هذا الحكم.

مسوغات القول باستحالة ترجمة القرآن الكريم

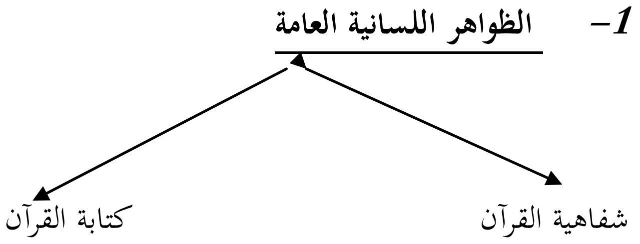

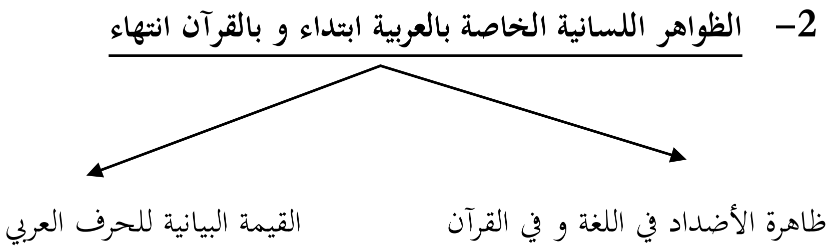

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3- الظواهر البلاغية الخاصة بالعربية ابتداء وبالقرآن انتهاء

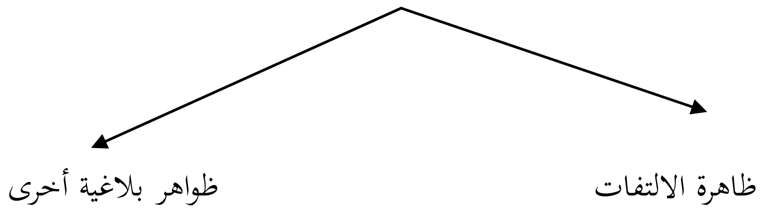

4- الظواهر اللسانية الخاصة بالقرآن

5- ظاهرة الإعجاز الرقمي

1- شفاهية القرآن:

و معنى شفاهية القرآن أنّ القرآن نزل من السماء على قلب سيدنا محمد –صلى الله عليه و سلم- و انتقل بعده إلى الصحابة و سمعوه منه منطوقا مقروءا، ثم نُقل إلينا بالتواتر، ثمّ بعد ذلك دُوّن القرآن الكريم و جُمع في السّطور بعد الصّدور على مراحل. فالقرآن في جانبه المقروء و المسموع و المنطوق أسبقُ من المكتوب و المدوّن. و حينما نغفل عن هذه الناحية نجد كثيرا من سوء الفهم يتسلّل إلى الكتابات التي تناولت القرآن الكريم. فالمستشرقون حينما يريدون أن يقطعوا القرآن عن نسبه السماوي يقولون **قرآن محمد،**(Le Coran de Mahomet) ، أي كتبه بنفسه. وهي فرية ليست جديدة ذكرها القرآن حينما قال: "**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة و أصيلا**"(3)

والفرق بين المدوّن و المقروء أنّ أيّ إنسان إذا كُلّف بكتابة شئ ما سهل عليه ذلك و تيسّر؛ بخلاف ما إذا طولب بإنشائه في اللّحظة التي هو فيها، لأنّ المدوّن و المكتوب يكون عرضة للتصحيح و المراجعة حتى يخرج في أكمل صورة. و القرآن يحمل إشارات إعجازية لا يمكن لمن يؤلّف الكلام أن يرتّبها هذا الترتيب المعجز و هو بصدد إنشاء الكلام. لقد توصّل العلماء إلى الكشف على أنّ قوله تعالى: "**وكذلك جعلناكم أمة وسطا**"(4)، هي الآية رقم **143**من سورة البقرة تقع في وسط السورة بحساب عدد آيات سورة البقرة التي عدد آياتها **286** آية.

و القرآن الذي نزل في لحظة فارقة من الزمان لا يمكن أن يخضع للمقاييس البشرية فيطرأ عليه المراجعة و التصحيح. فأنّ لمحمد –صلى الله عليه و سلم- أن يأتي بالقرآن الكريم مرتّبا على هذا النسق العجيب؟ لا شك أنّ هذا الجانب هو أعجب جانب في القرآن، و أنّ كل ما يمكن الكشف عنه من أسرار القرآن إنما يرتدّ إلى هذا الأمر و يرجع إليه في المحصّلة و النهاية، و لأنّه قد تضافرت الأدلة التاريخية على شفاهية القرآن.

فالرّسول –صلّى الله عليه و سلم- كان الوحي ينزل عليه و هو بينهم. وحقيقة أيّة لغة و أساسها إنّما هو المنطوق لا المكتوب. و هو ما أقرّته اللّسانيات الحديثة و المعاصرة و أكّدت عليه و أضحى من المسلّمات. وذلك بسبب وجود تباين واضح بينهما، من جهة عدم القدرة على ردّ المنطوق و إعادته؛ و لو فعل المتكلم ذلك لكان بصدد إنشاء كلام جديد، و هكذا دواليك. أمّا من جهة المكتوب، فيكفيك قول الراغب الأصفهاني: "إنّي رأيت أنّه لا يكتب أحد كتابا في يومه إلاّ قال

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في غده: لو غُيّر هذا لكان يُستحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل، و لو تُرك هذا لكان أجمل. و هذا من أعظم العبر، و هو دليل على استيلاء النّقص على جملة البشر". [5]

وهذا مثال واحد من عدّة أمثلة يرجع إليها في مظانّها للاستزادة و الاستفادة.

و أمّا علاقة ذلك باستحالة الترجمة فوجه ذلك أنّ المترجم و هو بصدد ترجمته يقصد اللغة و لا يقصد هذا الجانب المعجز من القرآن. و يبحث عن معادل دلالي لكلمة "**وسطا**" في اللغة الهدف حتّى و لو لم تؤدّ ما تؤدّيه كلمة "وسطا" من دلالة مزدوجة أي دلالة الأمّة الوسط، و دلالة الكلمة الوسط من السورة.

– **بالانجليزية:**

(143) And thus we have made you **a just** community that you will be witnesses over the people and the Messenger will be a witness over you.

– **بالفرنسية:**

(143) Et aussi Nous avons fait de vous une communauté de **justes** pour que vous soyez témoins aux gens, comme le Messager sera témoin à vous.

فالمترجم مجبر على الاختيار بين تصيّد الفكرة وبين الخضوع لإكراهات اللغتين الأصل و الهدف كلتيهما. وأنّ المترجم حتّى و لو كان على وعي وإدراك بهذه الناحية الإعجازية؛ فإنّه لا يقدر على أن يحقّقها في ترجمته بتاتا، فما بالك إذا غاب عنه هذا الأمر بالكلّية.

1- كتابة القرآن:أو معجزات رسم القرآن:

و كلمات القرآن منها ما كُتب موافقا لما في العربية و هو كثير جدّا في القرآن، و هناك كلمات تأتي في موضع برسم معيّن، و نفس الكلمة تأتي برسم آخر في موضع آخر مثل "**الصلاة و الصلواة**". و هناك كلمات هي نفسها برسم مختلف في أحد حروفها مثل "**بصطة و بسطة**". وهذا الجانب من القرآن لا يقلّ إعجازا عن سابقه و إن كان فرعا عنه. ذلك أنّ للعلماء في هذا الميدان سياحات فكرية في غاية الذكاء و سرعة البديهة. فقد ربطوا بين الحروف و الكلمات القرآنية تحقيقا أو تقديرا و بين الدّلالات و المعاني التي يمكن استشفافها منها.

و هذا الجانب مهمّ جدّا لأنه ميدان لاستنباط الأسرار التي كُتب بها هذا المصحف الشريف. و أمّا من جهة الترجمة فإنّ المترجم لا يلتفت بتاتا إلى هذه الحكم و الأسرار المتعلّقة بالرسم، لأنّه يقصد اللّغة فيترجمها و لا يُعمل عقله في استشفاف هذه الأسرار المتعلّقة بالإعجاز. فهو ينقل و يترجم كلمة "**امرأة**" و "**امرأت**" بنفس الترجمة، وكذلك "نعمة و **نعمت/ رحمة و رحمت/ شجرة و شجرت و قرة / قرت**". أمّا علماء القرآن و الرسم و القراءات فيُعملون عقولهم في استنباط دلالات ورود هذه الكلمات بهذه الصيغ التي لا توافق رسم العربية المألوف. و لا ريب أنّ من يقرأ النّص مترجما لا يستطيع أن يدرك هذه المواضع من الاختلافات التوقيفية للرسم القرآني.

2- الظواهر اللسانية الخاصة بالعربية ابتداء وبالقرآن انتهاء:

و نعني بهذ الجانب أنّ اللغة العربية تتوفّر على طاقات تعبيرية محايثة لها (أي موجودة بداخلها لا تنفكّ عنها). و لا مناص حينئذ من الاستناد إلى ما تقرّر من مبادئ و نظريات تنتظم اللغات جميعها، و توقف على خصوصيات كلّ لغة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على حدة. فمثلما هو معلوم لدى كلّ اللسانيين و التراجمة أنّ لكلّ لغة عبقريتها الخاصة. إلاّ أنّ درجة التميّز لدى اللّغة العربية أوضح منها في غيرها بشهادة ذوي التّخصص اللّساني في مجالي اللّسانيات المقارنة و اللّسانيات التقابلية كلتيهما. و هو ما يوجب التأنّي الشديد في محاولة ترجمتها. فيجب – و الحال هذه– مطالعة أهل الاختصاص من لسانيّين و بلاغيين، و من لهم باع في مقارنة اللغات بعضها ببعض و المقابلة فيما بينها.

أولا: ظاهرة الأضداد:ومن الظواهر اللسانية الخاصة باللغة العربية و لا يشاركها في هذه الظاهرة غيرها من اللّغات **ظاهرة الأضداد**. و هي ظاهرة لغوية عربية مدهشة و عجيبة. و معناها أن يطلق اللّفظ على معناه وعلى ضد معناه في الوقت نفسه. مثلا:

في العربية: "**الصريم** لليل و النهار" – "**الناهل**للظمآن و للمرتوي" – "**الجلل** للعظيم و اليسير" و غيرها...

و أمّا ورد منه في القرآن الكريم فكثير:

"**القرء** للحيض و الطهر" – " **عسعس** الليل إذا أدبر و إذا أقبل" – " **المولى** للعبد و للسيد" – "**السارب** للمتواري و للظاهر" "**الغريم** للدائن و المدين" "**الصريخ** و **الصارخ** – للمغيث و للمستغيث". و هناك أنواع أخرى من الأضداد تتبع صيغ العربية كالفاعلية و المفعولية مثل "**راضية**" فهي بمعنى مرضية. و "حجابا **مستورا** " بمعنى ساترا. **و "ظننت"** بمعنى أيقنت. و **غلبهم** في الروم بمعنى فوزهم و خسارتهم.

فكيف يتصرف المترجم ؟

- **هل ينقل الكلمة أم معناها؟**

مثلا قوله تعالى: إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة **فما فوقها**". إذا راعى المترجم الشرح و التفسير فإنّه لا يجد مفرّا من ترجمتها "**فما دونها**"، أي بما فُسّرت به. و أمّا إذا راعى الجانب الحرفي من الترجمة فإنّه يترجمها كالتالي:

[2.26] Certes, Allah ne se gêne point de citer en exemple n'importe quoi: un moustique ou quoi que ce soit au-dessus.

غير أنّما تؤديه هذه الترجمة لا يعكس دلالة النّص الأصلية، لأنّه باستعمال "التّرجمة المرتدّة Back-translation "[(6)] فقد يجد المترجم أنّ النص بعد إعادة ترجمته يدلّ على معنى "أعلاها" و ليس على معنى "فوقها". و هناك فرق بيّن بينهما. غير أنّ الحفاظ على روح الآية و استشفافا لما يمكن أن تدلّ عليه من الفتوحات و الأسرار العلمية ؛ فإنّ الإبقاء على الآية على حالتها هو الأسلم و الأحوط ، لأنّ هناك من يرى أنّ دلالة "**فما فوقها**" تدل على تلك الكائنات المجهرية الدّقيقة المتناهية في الصغر و التي لا ترى إلاّ بالأجهزة، وأنّ ترجمتها بما دونها أو بما أعلاها لا يعكس هذه الناحية الإعجازية العلمية.

ثانيا: هناك ظاهرة لسانية في فقه اللغة العربية دقيقة جدّاً وهي مناسبة الحروف لمعانيها:

لاحظ علماء العربية أنّ حروفها مناسبة لمعانيها وأنّ ثمّة قيمة تعبيرية للحرف العربي. "فلم يعنهم من كلّ حرف أنّه صوت وإنّما عناهم من صوت هذا الحرف أنّه معبّر عن غرض، وأنّ الكلمة العربية مركّبة من هذه المادة الصوتية التي يمكن حلّ أجزائها إلى مجموعة من الأحرف المعبّرة ذات الدّلالة. فكلّ حرف منها يستقلّ ببيان معنى خاص، مادام يستقلّ بإحداث صوت معيّن. وكلّ حرف له جرس وإيقاع". [7]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا الجانب من العربية ممّا امتازت به عن غيرها من اللّغات. و هو أوضح منه في لغة القرآن الكريم. فلقد ألّف العلماء في هذا الميدان الفقهي اللغوي مصنّفات غاية في الإبداع و النباهة. و رأوا أنّ اختيار الكلمات في نظم الآية يسبقه اختيار لحروف في الكلمة لا يقوم غيرها مقامها. مثلا"**في طغيانهم يعمهون**" وقوله تعالى: "**تؤزهم أزا**" فلو غيّرت الهمزة من "**أز**" لذهب موضع الحسن و الجمال من الكلمة و تبعا لذلك من الآية، فضلا عمّا تؤدّيه كلمة "**أز**" من معنى الدفع في خفاء إغراء و إغواء.

و المترجم لا يستطيع إلاّ أن يتعامل مع المعجم في اللّغة الهدف بما يتوفّر في هذه اللغة من كلمات و مفردات. و لا يستطيع أن ينسج على منوال اللغة العربية في لغة تأتي موافقة حروف مبانيها لمعانيها.

كما أنّ هناك ناحية بلاغية أخرى في القرآن و هي إيجاز المعنى الكثير في أقصر عبارة، بل و أعجب من ذلك و أغرب أن تقوم كلمة واحدة مقام جملة كاملة في غير اللغة العربية. و ذلك مثل قوله تعالى: "**فأسقيناكموه**"، فهذه الكلمة مكوّنة من فعل و فاعل و مفعول به أوّل و مفعول به ثان. ولنقل خطابها إلى غير اللغة العربية لا بدّ من جمل و عبارات كاملة.

4- الظواهر البلاغية الخاصة بالعربية ابتداء وبالقرآن انتهاء:

– الالتفات:

وهو أن يعدل عن كلّ واحد من التكلّم و الخطاب و الغيبة إلى الآخر، كما في قوله تعالى: "مالك يوم الدين. إياك نعبد، وإياك نستعين" و كقوله سبحانه: "وهو الذي يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه".و كقوله سبحانه: "**و هو الذي يسيركم في البر و البحر، حتى إذا كنتم في الفلكوجرين بهم بريح طيبة**"

و لنعرض الترجمة الفرنسية للآية سالفة الذكر:

[10:22]C'est Lui qui vous fait aller sur la terre et sur la mer. Ainsi, vous étiez montés sur des bateaux qui voguaient grâce à un bon vent.

فالمترجم في اللغة الفرنسية لم يعرض بتاتا للالتفات وكأنّه لا وجود له في النّص الأصلي. و إنّما فعل ذلك لأنّ اللغة الفرنسية لا تحوز كإمكانية تعبيرية بلاغية على هذه الظاهرة البلاغية المتوفرة في اللغة العربية.

فإذا كنّا نتحدّث عن التشبيه و الاستعارة و المجاز و سائر الصور البيانية ممّا يوجد له مثيل في سائر اللغات؛ فإنّ اللّغة العربية تحوز إمكانيات تعبيرية بلاغية في غاية الرّوعة و الإتقان ممّا لا يوجد نظيره في اللغات الأخرى، أو قد يوجد و لكن بنسب متفاوتة أو بصيغ تعبيرية غير مألوفة في كلام العرب. وذلك مثل: **تأكيد المدح بما يشبه الذم و عكسه و المشاكلة و حسن التعليل و مراعاة النظير**.

الظواهر اللسانية الخاصة بالقرآن:

و نقصد بها عدم جريان نظم الآية وفق نحو اللغة العربية. فمن المعلوم أنّ قواعد النّحو العربي إنّما استُنبطت و تمّ الاحتجاج بها من القرآن الكريم. غير أنّ القرآن الكريم يتوفّر على أمثلة لا تسير على نمط القاعدة النحوية المألوفة. وذلك مثل قوله تعالى: "إنّ**هذان** لساحران". وكقوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا و**الصَّابِئُونَ** وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" . وكقوله تعالى:"لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ،**وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ**،وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا"

فإذا كانت قواعد اللغة العربية إنّما استنبطت من القرآن الكريم، فلا ريب أن يكون القرآن حاكما على اللغة و ليس العكس. فلا مجال حينئذ من تخطئة القرآن الكريم أو أن يروم أحد إصلاح ما فيه، لظنّه أن ثمّة لحنا في الآيات سالفة الذكر. فكيف يفعل المترجم؟

المترجم إلى لغة غير العربية لا يلتفت إلى هذه الناحية بتاتا، لأنه لا يملك إلاّ أن يتجاوزها، بأن يترجم البنية السطحية الظاهرة من الآية فينقل معناها إلى لغة أخرى. و هو إذا فعل ذلك حرم القارئ من اللفتات البلاغية و الدّلالية الموجودة في هذا النّوع من الآيات. و التي يكون سبب ورودها على هذا الشكل مجالا للتدبّر و التأمل في نظم الآيات و إعجازها.

أ- **ظاهرة الإعجاز الرقمي:**

و هي ظاهرة ملفتة للانتباه حقا. و تدعو إلى مزيد من التأمّل و التدّبر لأسرار القرآن الكريم التي تتكشّف للأجيال شيئا فشيئا. و بعيدا عن المغالاة في اعتباره أو عدم اعتباره إلاّ أن الأدلّة على انتظام بعض الكلمات و الآيات وفق نسق رقمي و عددي معيّن أصبح مألوفا لدى بعض الباحثين. و قد ألّفت في ذلك مصنفات بلغت عند بعضهم حجم موسوعات مخصّصة لهذا الموضوع. غير أنّ ما يهمّنا من هذا الموضوع هو علاقته بالترجمة. فإذا قام الدليل على هذه الظاهرة من حيث تواردها في مظانّها؛ فإنّ المترجم الواعي بها أي بهذه الظاهرة، يجد نفسه مجبرا على التصريح للقارئ أنّ ما ينقله من نصّ إنّما هو نقل للخطاب بلغته أي بلغة القارئ في اللغة الهدف. و بناءً على ذلك فلن يتمكن من رصف النّص المترجم لغويا و رقميا وفق نسق الآية القرآنية العربية. فعلى سبيل المثال الرقم سبعة وتوارده كالتالي: **سورة الفاتحة**: عدد آياتها سبع آيات، وعدد الحروف التي تتألّف منها السورة هو 21 حرفاً عدا الحروف المكرّرة، أي من مضاعفات الرقم سبعة. و عدد حروف اسم الله في سورة الفاتحة هو 49 فحرف الألف تكرّر 22 مرّة، وحرف اللام تكرّر 22 مرّة، والهاء تكرّرت 5 مرات. ومجموع هذه الأعداد هو 49 حرفا و هو مضاعفات العدد **7**. والكثير الكثير من الأمثلة في القرآن عن الرقم**7**. فالمترجم لا يستطيع أن يتحكّم في هذه الظاهرة حتّى و لو قصدها لاختلاف ترتيب الحروف و الأصوات بين اللغات.

ولهذه الاعتبارات رأى كثير من الدارسين المنصفين أن القرآن يتميز عن سائر الكتب بهذه الميزة و هي عدم قابلية نصّه لأيّ نوع من أنواع الترجمة. إلاّ أن يكون المنقول من ذلك شرحا و بيانا و تفسيرا و تأويلا. و يعامل معاملة ذلك. فالترجمة مهما بلغ من مهارة صاحبها واقتداره تقف أمام سلطة القرآن الكريم و تعاليه. و المترجم في الأخير مُجبر على التّعامل مع القرآن الكريم كنصّ لغوي يُراد لهذه الترجمة أن تعكس أشتات المعاني و الدلالات التي تتيحها اللغة أولا و يسعف التفسير و التأويل ما ندّ منه و عزب.

Muhammad Assad disait : « Sa traduction ne rendra que la coquille extérieure du sujet littéraire auquel son travail est consacré et passera plus au moins à coté de la signification profonde du texte original. Plus profond sera ce texte, plus éloignée de son esprit sera la traduction » (8)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعلى سبيل المثال تُذكر الترجمة التالية للوحدة المعجمية "ربّ" الواردة في "القرآن الكريم". فلقد توارد ذكرها في كثير من نصوص القرآن الكريم بصفة مستفيضة. ودلالتها المعجمية مشتهرة لدى جميع الناس لتكون علَما على الإله المتعالي إذا وردت بصفة إطلاقية، أي بدون ارتباط مع وحدة معجمية أخرى.

وفي حال ارتباطها فهنا يتغيّر المعنى لتدلّ على معان متعدّدة مثل: "**ربّ البيت، ربّ الأسرة، ربّ المال، ربّ القبيلة**، الخ.. ". وما دام الاستعمال اللغوي يشملهما معا فإنّ استبدال أحد المعنيين ليحلّ محلّ الآخر يوقع في **الالتباس المفهومي**. فحينما يُطالع المترجم نصوص القرآن يقف على استعمالات متعدّدة لهذه الوحدة المعجمية. ومن ضمن هذه الاستعمالات ما يوجد في الآية التالية : "ارجع إلى ربّك "[9]. فإنّ دلالة الوحدة المعجمية "ربّ" من المفروض أن يُفهم منها المعنى الأول وهو إطلاقه على الإله المتعالي.

وتكون الترجمة تابعة لهذا الاختيار الدلالي في هذا السياق فتترجم إلى اللغة الفرنسية باختيار إحدى البدائل التالية : " Dieu- Seigneur- Créateur- idole ". واقتراح أحد هذه البدائل المذكورة سببه ورود كلمة "ربّ" بصفة الإطلاق وبدون ارتباط مع وحدات معجمية أخرى. غير أنّ ترجمة بهذا الشكل لا تستجيب بحال من الأحوال إلى فهم سليم لدلالة هذه الوحدة المعجمية في اللغة الأصل. وعدم فهمها فهما سليما يؤدّي إلى الفشل في ترجمتها ترجمة سليمة تبعا لذلك.

وبالتالي فالدلالة المقصودة من كلمة "ربّ" في الآية الوارد ذكرها إنّما تطلق ويُراد بها الملك الحاكم للبلاد في ظلال الأسرة الفرعونية الحاكمة لمصر وقت وقوع الأحداث. والدليل على ذلك وجود الوحدة المعجمية **"ارجع إلى"**؛ ممّا يحيل على شخص فيزيائي يُسأل فيُجيب ويُؤتى من عنده ويُرجع إليه.

وهذا ما يجعل الاتجاه نحو استبدال كلمة "ربّ" في معناها ودلالتها بواسطة فهم ما تدلّ عليه في ثنايا هذا النص ذاته، هو ما يُمكّن من الانتقاء من الوحدات المعجمية في اللغة الهدف ما يُمكنه أن يتقاطع مفهوميا ودلاليا مع نظيرتها في اللغة الأصل. وهذا ما يوصل إلى نتيجة مفادها أنّ الدلالة الواردة في هذا النص القرآني تنصرف إلى شخص أطلق عليه لفظ "الرب" لاعتبارات تاريخية و دينية معيّنة. ففي هذه الآية لا يُفهم من كلمة "ربّ" ما تدلّ عليه – عادة – وهو المطلق التصرّف في الوجود الذي "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار"[10].

و لتبيان ذلك نستطلع ترجمتين لهذه الوحدة المعجمية لورودها في القرآن الكريم عند بعض ممّن تصدّى أو حاول أن يقدم على ترجمة نصّ مقدّس كالقرآن الكريم.

يقول القرآن الكريم: "وقال الملك ائتوني به؛ فلمّا جاءه الرسول قال **ارجع إلى ربك** فاسأله ما بال النّسوة اللّاتي قطّعن أيديهنّ، إنّ **ربي** بكيدهن عليم"[11]. ولقد ترجمت هذه الآية على الشكل التالي:

« Et le roi dit : « Amenez – le moi », puis lorsque l'émissaire arriva auprès de lui, [Joseph] dit : « Retourne auprès de ton **maître** et demande – lui « quelle était la raison qui poussa les femmes à se couper les mains ? Mon **seigneur** connait bien leur ruses » [12]

أمّا الترجمة الثانية لنص الآية فقد وردت على الشكل التالي:

« Le roi dit: « Amenez, le moi ». Quand l'émissaire fut venu Joseph lui dit : « Retourne à ton **seigneur** lui demander la confession des femmes qui se sont coupé les doigts ? Mon **Seigneur** de leurs astuces est connaissant » [13]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يُلاحظ أنّ صاحب الترجمة الأولى استعمل مصطلحين للدلالة على نفس الوحدة المعجمية في نفس الآية وهي كلمة "**ربّ**"؛ فالأولى مصطلح « **Maître** » والثانية « **seigneur** » للدّلالة على ترجمة كلمة "**ربّ**" في الموضعين. و بعرض هذه الأمثلة يتبيّن أنّ الأمر لا يعدو أن تكون الترجمة مجرد اختيارات معجمية ينتقيها المترجم بحسب ما يتوفّر أمامه من إمكانيات اللغة الهدف. و هو إذ يفعل ذلك لا يلتفت إلى فرادة النص الأصل و تميّزه، و أنّ ما يوفره المعجم من مرادفات قد تسعفه في بعض الأحيان، فهو لا يفيده بتاتا في أحايين أخرى. و الدليل أن تفرّد كلمة "**الله**" من الوجهة اللسانية الدلالية في اللغة العربية يضع أي مترجم في حرج حينما لا يعثر على المعادل الدلالي لهذه الكلمة. و قد رأينا مدى الاختلاف في ترجمة كلمة "**رب** " التي هي كلمة تأتي من باب المشاكلة، أي قد يشترك فيها ما يُطلق على البشر و على خالقهم. أمّا كلمة " الله" فهي خاصّة و متخصّصة و لا يشارك الله – عزوجل – في هذه التسميّة أحد. و ترجمتها إلى غير اللغة العربية بما تحمل من دلالات و أسرار ليس في مقدور أحد.

في الخاتمة:

- إنّ إثبات استحالة ترجمة القرآن بالدلائل التي سقناها و بدلائل أخرى قد تتكشّف لدى باحثين آخرين، لتثبت أنّ ظاهرة استحالة ترجمة القرآن تندرج في حقل الإعجاز القرآني. و أنّ وقوع الترجمة بالمفهوم المتداول للتفسير و التأويل و الشرح إنّما هو جهد بشري خالص ينتج عن اختيارات المترجم من ضمن بدائل اللّغة المتوفرة بين يديه سواء في العربية كلغة أصل أو سائر بدائل و إمكانيات اللغة الهدف.
- يحق لنا أن نتساءل هل هناك كتاب موجود قد اجتمعت فيه نواحي التميز و التفرد مثلما اجتمعت في القرآن الكريم. و الجواب البديهي أن القرآن الكريم ليس كأي كتاب. و هي نتيجة تعلن عن نفسها لدى محبه أو مبغضه. فلا يوجد كتاب قد اجتمع فيه ما اجتمع في القرآن، قال تعالى: "**ما فرطنا في الكتاب من شئ** ". كما أنّ من سنن الله في الكون أنّ من أبسط قواعد الحركة و السكون في هذا الكون أنّ معرفة الحركة إنّما تُقاس باعتبار نقطة الارتكاز التي تدلّ المتحرك على حركته؛ وبدون هذه النّقطة يفقد الاتجاه. ومنه فإنّ القول باستحالة الترجمة يصبّ في اتجاه اعتبار نسخة القرآن الكريم العربية هي نقطة الارتكاز للبشر و لغير البشر.
- بالاستناد إلى ما استقرّ عليه العرف اللساني، وذلك على الرغم من تكاثر النّظريات اللّسانية و تسارع منجزاتها المدعّمة بتجارب ودراسات صلبة الأساس؛ فإنّه يتبيّن لنا من خلال تجارب اللسانيات الإدراكية أنّ البنية اللسانية الكلية هي التي يجب اعتبارها قطب الرحى في أيّة دراسة مقارنة Comparative أو تقابلية Contrastive وذلك ما يوحي بأنّه على الرغم من اختلاف اللغات، **فإنّ هناك البقية الباقية من المعاني المستقرّة في الأذهان التي يقع بها التواصل الإنساني و لو بالإشارات**. وهذه المعاني المركزية الأساسية الأصلية هي بخطاب القرآن للناس أجمعين هي فطرة الله التي فطر النّاس عليها. و الدّليل على ذلك أنّ علم اللسانيات المعاصرة يقرّ بوجود الوحدات الدلالية المركزية لدى جميع البشر. و القرآن يحافظ عليها أينما حلّت في القرآن الكريم، و لا يسمح للسياق أن يسطو عليها. فكلمة "**الله**" في القرآن أينما وُجدت لا تحتمل إلاّ هذا المعنى المرصود ابتداء؛ و لا يطرأ على معناه **لا سياق و لا**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مجاز و لا تناص و لا تأويل و لا لعب حر للعلامة. والسبب في ذلك أنّ البشر يختلفون في كلّ مكان وزمان حول ماهية القوة التي تسيّر هذا الكون و تختلف التسميات: (**العلة الأولى، العقل الكلي، المبدع الأول، واجب الوجود، الغاية الأولى، السبب الأوّل**.....) لكن القرآن الكريم يسمّيها باسمها الذي لا يوجد له نظير إلاّ في اللغة العربية. و أنّ البشر كلّهم مدعوون إلى معرفة ربّهم و خالقهم بالألفاظ التي اختارها لهم ربّهم، و أنّها بالعربية لحكم أرادها الله عزوجل. ممّا يؤكد فرادة لفظ "**الله**" في العربية كوحدة مركزية دلالية في دين الإسلام. يقول تعالى: "**هل تعلم له سميّا**". و يقول تعالى: "**قل الله ثمّ ذرهم في خوضهم يلعبون**". وأنّ غياب المركز و اللعب الحر للدّوال و للعلامات هو من أكبر المآسي التي تجرّ الشقاء على الإنسانية. و مادام الأمر كذلك فإنّه لا مناص للمترجم من التسلّح بهذه العلوم اللّسانية لتجنب الزّلل و العثار لكلّ ما هو بصدده من نقل للخطاب القرآني إلى لغات أخرى.

- و إنّما اكتسب القرآن هذه المنزلة لما يُناط به من واجبات جمّة تجاه العالمين بشرا و غيرهم. فهو ليس خاصّا و لا متخصّصا و إنّما هو عامّ لكل زمان و مكان يُراد له من لدُن خالقه أن يصل إلى كلّ النّاس نقيّا لا شائبة فيه. و لا يؤدّي هذا الدور إلاّ إذا حافظ على نسخته الأصلية. فالحفاظ على النّسخة العربية للقرآن، و اعتبارها الوحيدة و الفريدة إنّما يدلّ على أنّ الخطاب القرآني يجب الحفاظ عليه سالما و لا يمكن التفريط في أيّة جزئية من جزئيّاته.

*يبدو أنّنا حينما لا نستند إلى القرآن الكريم، فإنّ كثيرا من المفاهيم المضلّلة تتسلّل إلى منظومتنا الفكرية دون رقيب أو حسيب و تنفذ إلى فراغنا، و تمارس دورها في خلخلة البنية الفكرية للأجيال و تصيب الأمّة بالتيه الذي لا يعلم إلا الله مداه في الزمان و المكان.و **ما فكرة موت المؤلف و التناص و تفكيك الميتافيزيقا و لا نهائية الدلالة و تعدّد الأصوات** و غيرها إلا عناوين مضلّلة تخفي في طيّاتها الضنك و الشقاء الذي لا شفاء منه.

إذا علم ما سبق فإنّ المسؤولية التي تُلقى على كاهل النّخبة المثقفة خصوصا لهي ثقيلة جدّا لمن ألقى السمع و هو شهيد. و يعجب المرء من تكشّف أسرار هذا الكتاب العزيز للعالمين في شرق الأرض و غربها و زهد المسلمين عنه. إنّ أحدنا ليطرب حينما يطالع آراء المنصفين من الباحثين في القرآن الكريم مع أنّنا كمسلمين أولى بنا و أحرى أن نكون السبّاقين إلى تقديم هذه الأدلّة إلى المسلمين وإلى غير المسلمين، و لن يتأتّى ذلك إلاّ إذا كان الوعي بالقرآن الكريم هو حادينا و منطلقنا.

1- Malek Chebel : Le Coran pour les nuls, 2011 france. P 73.

2)- سورة المائدة، الآية رقم 48

3- سورة الفرقان:الآية رقم 05.

4- سورة البقرة: الآية رقم 143.

5- إيميل بديع يعقوب: المعجم المفصل في اللغويين العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ،ص 05.

6- مارك شتلويرث، ميرا كووي: معجم دراسات الترجمة، ترجمة جمال الجزيري، ط1، 2008، القاهرة ، ص 51.

7- ابن جني: الخصائص، ص 142.

8 - Muhammad Assad : Le Coran peut-il être traduit ? Tawhid, P14. q

9- القرآن الكريم: سورة يوسف. الآية رقم: 50.

10- القرآن الكريم: سورة الأنعام. الآية رقم: 103.

11- القرآن الكريم: سورة يوسف. الآية رقم: 50.

12- A. Harakat : le saint coran (traduction du sens de ses versets) : Beyrouth, Liban, Dar El Fikr, P 637.

13- Jacques Berque : le Coran, Paris, France, sindbad, 1990, P 250.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com